— ٦ —

الحركات الوطنية

وأثرها فى التأليف التاريخى

شهدت مصر نهضة قومية إصلاحية فى مفتتح القرن التاسع عشر ، فقد قاوم المصريون الحملة الفرنسية مقاومة عنيفة مستمرة إلى أن جلت عن أراضيهم ، ثم كان للمصريين رأى فى اختيار محمد على والياً عليهم ، وفى عهده بدأت مصر تنفض عنها رداء الجمود الذى ران عليها طوال العصر العثمانى ، كما أخذت تبنى لنفسها مجداً حربياً وصناعياً وثقافياً جديداً ، وكان لهذه النهضة أثرها الواضح فى حركة التأليف التاريخى ، وبخاصة فى كتابات رفاعة الطهطاوى .

ثم أصيبت هـذه النهضة بصدمة قوية عندما تكاتفت دول أوربا للحد من أطماع محمد على ، وأجبرته على أن يلزم ملكه فى مصر ، وحدثت نكسة فى عهد عباس عندما أغلق معظم المدارس والمصانع التى أنشأها جده .

ولم تكن دول أوربا وخاصة إنجلترا وفرنسا قد نسيتا أطماعهما

فى مصر ، ومهد لها إسماعيل السبيل بسياسته المالية الخرقاء ، فبدأت الدولتان تتدخلان فى شؤون مصر الداخلية بحجة المحافظة على مالهما من ديون ، وفرضت الدولتان على مصر شبه حماية مشتركة حين أوجدتا نظام الرقابة الثنائية ، وحين نجحتا فى تعيين وزيرين أوربيين فى الوزارة المصرية ، وبدأ المصريون يضيقون بهذه الأوضاع : بتبعيتهم لتركيا ، وبفساد الحكم ، وبتسلط العنصر التركى فى الجيش ، وبالاضطراب المالى ، وبازدياد نفوذ الأوربيين واستغلالهم للامتيازات الأجنبية .

وبدأت الثورة العرابية حين بدأت داخل الجيش ولإصلاح الجيش ، ولكنها لم تلبث أن تطورت فأصبحت ثورة عامة واحتضنت كل آمال الشعب وأخذت تعمل على تحقيقها ، وقد مهدت لظهورها مقدمات وأسباب كثيرة ، لعل أهمها ظهور حركة الجامعة الإسلامية ونموها ، وكان روح هذه الحركة وزعيمها الأول جمال الدين الأفغانى .

وجمال الدين رجل كريم المحتد ، طيب المنبت ، أفغانى أو إيرانى الأصل ، امتاز بذكاء خارق ، وقضى حياته مرتحلا ، فزار الهند وبلاد العرب وإيران ومصر ، وفى كل بلد إسلامى نزل به كان يرى أهله أذلة ، وكان يرى الأوربيين هم الأعلون سلطاناً ونفوذاً ، فحز فى نفسه ما رأى وهاله ما شاهد ، فنادى بفكرة الجامعة الإسلامية ، فقد كان يؤمن أن حاضر المسلمين لا يصلح

إلا بما صلح به أولهم ، وأن الوحدة الجامعة كانت سبب قوتهم فى الماضى ، وأن الفرقة المتخاذلة هى سبب ضعفهم فى الحاضر ، وكان سلاحه الأكبر لتحقيق هذا الهدف إيجاد نظام حكم دستورى ، لأنه بعد تجارب متكررة يئس من حكام الشرق الإسلامى ومن احتمال أن يعاونوا على إقالة العالم الإسلامى من عثرته ، بل لقد آمن أن هؤلاء الحكام بنزعاتهم الاستبدادية القوية عامل آخر من عوامل التأخر ، فهم والنفوذ الأوربى آفتان يجب القضاء عليهما للنهضة بالعالم الإسلامى ، والسبيل إلى ذلك وحدة إسلامية ونظام شورىّ .

وكان أنبغ تلاميذ الأفغانى هو الشيخ محمد عبده ، أخذ عنه مبادئه وشاركه منفاه ، وعاونه فى إصدار مجلة العروة الوثقى ، ثم شارك فى الثورة العرابية ، ثم كانت له جهود مشكورة فى إصلاح الأزهر .

كانت حركة الجامعة الإسلامية إذن من أهم المؤثرات لبعث الوعى القومى والفكرى فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الإسلامى ومهدت هذه الحركة لظهور الثورة العرابية كما مهدت لظهور ثورات أخرى فى أجزاء أخرى من العالم الإسلامى .

يضاف إلى هذا عوامل أو أسباب أخرى خاصة بمصر ، لعل أبرزها انتشار روح التذمر نتيجة لازدياد نفوذ الأجانب مالياً

السيد جمال الدين الأفغانى

أحمد عرابى

وسياسياً ، وإنشاء صندوق الدين ، وتخصيص الجزء الأكبر من موارد البلاد لصالح الدائنين ، واستعلاء الأجانب واعتمادهم على الامتيازات الأجنبيـة والقضاء المختلط لعرقلة كل إصلاح قضائى أو مالى أو إدارى داخل البلاد .

وصاحب هذا كله ظهور وعى قومى جديد نتيجة لانتشار التعليم وازدياد عدد المثقفين وتقدم الصحافة ، والتجارب البرلمانية الأولى التى أتاحت للمصريين فرصة مناقشة أحوالهم فى أواخر عصر إسماعيل ، ولم يعمل الساسة والحكام من جانبهم على تغذية هذا الوعى القائم الوليد وتنميته ، بل على العكس عملوا على كبته ومحاربته ، فكان الخديو توفيق لا يؤمن بالشورى ، وكان كبير نظاره رياض على شاكلته يعمل على دعم الحكم المطلق ويضطهد كل مناوئ لسياسته .

وانفجرت الثورة بقيادة عرابى ، وانتهزت إنجلترا وفرنسا الفرصة ، ثم انفردت إنجلترا بالتدخل ، وانتهى الأمر بفشل الثورة العرابية لأسباب لا نعرض لها هنا ، ودخل الإنجليز مصر بحجة حماية الخديو ، ثم بقوا فيها واستقرت أقدامهم ، وبدأ عهد الاحتلال البريطانى ، وكرد فعل للاحتلال ظهرت حركة وطنية قومية جديدة بزعامة مصطفى كامل والحزب الوطنى تدعو لمقاومة الاحتلال ووجوب جلاء الإنجليز .

فهاتان حركتان وطنيتان ظهرتا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهما الحركة العرابية ، وحركة الحزب الوطنى ، وقد كان لكل منهما صدى وأثر واضح فى كتابات المؤرخين المصريين ومؤلفاتهم ، بل إنا لنجد أن معظم من كتب فى التاريخ من المصريين فى هذا الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانوا من رجال هذه الحركة الوطنية وقادتها .

فجمال الدين الأفغانى[1] ألف كتيباً صغيراً فى تاريخ وطنه الأول بلاد الأفغان ، وسماه : « تتمة البيان فى تاريخ الأفغان »

ومقالات الأفغانى ومحمد عبده فى « العروة الوثقى » تعتمد اعتماداً كبيراً على الحقائق التاريخية ، فهما يعرضان على المسلمين صوراً من تاريخهم المجيد لإثارتهم وإحياء نفوسهم ، ثم هى قد أصبحت

---

(١) عن حياة جمال الدين الأفغانى وحركته الإصلاحية راجع :

— محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ، بيروت ١٩٣١ .

— ميرزا لطف الله : جمال الدين الأسد آبادى ، ترجمه عن الفارسية إلى العربية صادق نشأت وعبد النعيم حسنين ، القاهرة ١٩٥٧ .

— محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى ، حياته وفلسفته ، القاهرة ١٩٥٧ .

— Browne (E. G): *The Persian Revolution. London 1909.*

— Gibb : *Modern Trends in Islam. Chicago 1950.*

— Gibb : *Whither Islam. London 1932.*

وانظر أيضا المراجع الواردة فى الهامش التالى .

فيما بعد مرجعاً من أهم المراجع التى لا يصح أن يغفلها من يريد التأريخ للثورة العرابية والتعرف على أسبابها الممهـدة لقيامها ، وعلى آراء الزعيمين المصلحين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد ظهرت عناية محمد عبده[1] بالتاريخ منذ عين فى سنة

---

(١) انظر عن ترجمته :

– محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣١ ؛ والجزء الثالث ، القاهرة ١٩٠٦ ؛ والجزء الثانى ، القاهرة ١٩٠٨ .

– جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، ج ١ ، القاهرة ١٩١٠ .

– أحمد الشايب : محمد عبده ، الإسكندرية ١٩٢٩ .

– مصطفى عبد الرازق : محمد عبده ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٤٦ .

– عبد المنعم حمادة : الأستاذ الإمام محمد عبده ، القاهرة (بدون تاريخ) .

– أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨ .

– عثمان أمين : محمد عبده ، مجموعة أعلام الإسلام ، القاهرة ١٩٤٤ .

– عثمان أمين : رائد الفكر المصرى محمد عبده ، القاهرة ١٩٥٥ (وانظر ما به من مراجع) .

– عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، القاهرة ١٩٣٧ .

– العروة الوثقى ، طبعة جديدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

– تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ١٩٣٥ . =

١٨٧٨ مدرساً للتاريخ فى مدرسة دار العلوم ، فاتجه بتلاميذه اتجاهاً جديداً ، وقرأ معهم مقدمة ابن خلدون ؛ ثم هو قد أسهم فى حركة التأليف التاريخى بكتابة كثير من الرسائل والكتب ، ومن المؤسف حقاً أن رسائله وكتبه التاريخية قد فقدت ولم يصلنا منها شىء ، وقد انفرد بذكرها السيد محمد رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، وهى :

١ — تاريخ إسماعيل باشا .

٢ — فلسفة الاجتماع والتاريخ (وهو كتاب كان يضم محاضراته فى مدرسة دار العلوم فى سنتى ١٨٧٨ — ١٨٧٩ عن ابن خلدون وآرائه فى الاجتماع) .

٣ — تاريخ أسباب الثورة العرابية ، وقد نشرت أجزاء من هذا الكتاب فى « تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ١٥٩

= — Blunt (W.S) : *Secret History of the English Ocupation of Egypt. London 1907* : (والترجمة العربية نشرتها جريدة البلاغ)

— Carra de Voux : *Les Penseurs de l' Islam. vol VI. Paris 1926.*

— Gibb : *Studies in Contemporary Arabic Literature (reprinted from the Bulletin of the School of Oriental Studies, 1928-1930)*

Osman Amin : *Muhammad Abduh, Essai sur ses idées philosophiques et Religieuses. Le Caire 1944.*

Blunt : *My Diaries. 2 vols. London 1919-1920.*

Sabry (M) : *La Genése de L'Esprit National Egyptien. Paris 1924.*

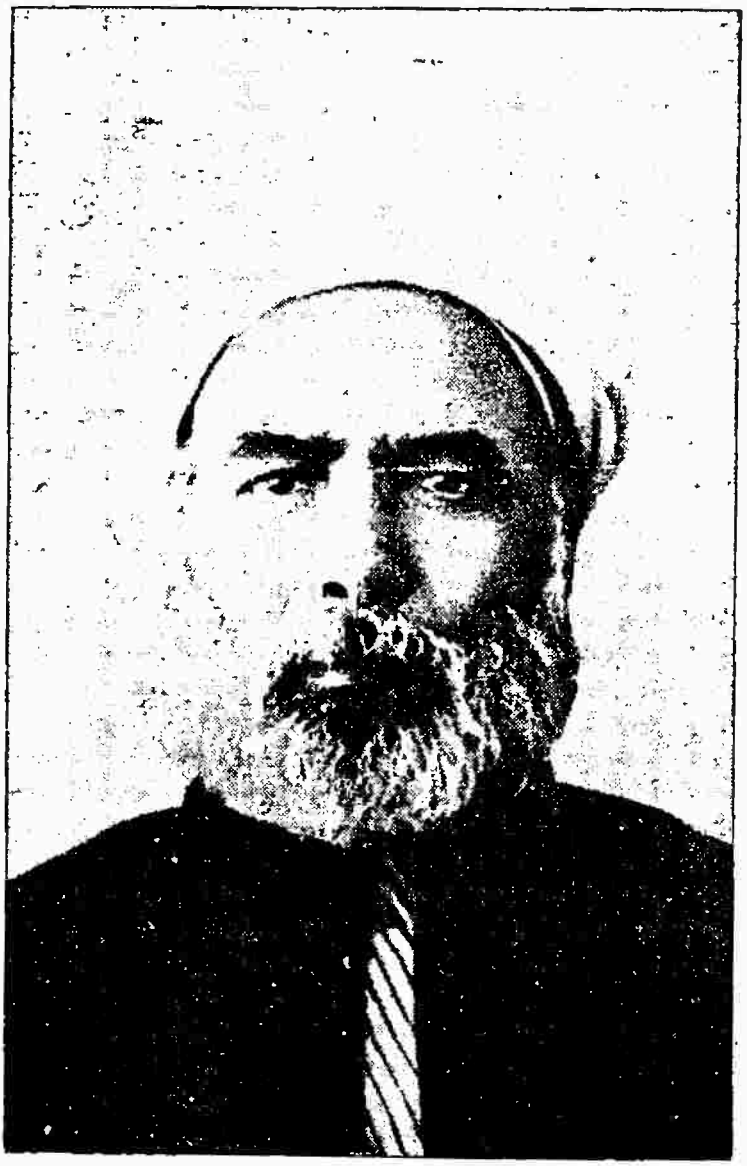

الشيخ محمد عبده

وما بعدها » وأجزاء مختلفة أخرى فى كتب مستر « بلنت » وفى رسالة الدكتور محمد صبرى باللغة الفرنسية عن نشأة الروح القومية المصرية التى طبعت فى باريس سنة ١٩٢٤ .

والكتاب الذى ألفه الشيخ محمد عبده عن أسباب الثورة العرابية دون شك أهمية كبرى فى فهم هذه الثورة وأسبابها ودوافعها ، ويبدو أن الشيخ محمد عبده قد تناول أحداث الثورة وأبطالها وأسرارها بشىء من الصراحة ، فكان هذا سبباً فى اختفاء الكتاب وعدم طبعه أو ظهوره ؛ يؤكد هذا ما قاله الأستاذ على عبد الرازق فى ترجمته لأخيه الشيخ مصطفى التى قدم بها الكتاب الذى يتضمن آثاره الفكرية والذى طبع أخيراً بعنوان « من آثار مصطفى عبد الرازق » ، فقد قال فى هذه الترجمة :

« ولا شك أن إعجاب أخى مصطفى بالمرحوم الشيخ محمد عبده قد بلغ الغاية ، بل أكاد أقول إنه قد جاوز الغاية ، فهو لم يترك أثراً من آثاره إلا بذل الجهد فى الاطلاع عليه وادخاره ، وبلغه أن للشيخ — رحمه الله — مؤلفاً عن ثورة أحمد عرابى لم يكن طبع . وما كان ليمكن طبعه ، لأن فيه حقائق لو نشرت لابيضت لها وجوه واسودت وجوه ، ولا تضعت مراكز أناس عالين ، وارتفعت مراكز أناس لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، وكثير ممن تعرض لهم الشيخ فى تاريخه لا يزالون أحياء ، هم وأبناؤهم

وشيعتهم ، وفيهم من تخشى قوته ، ولا يؤمن من سطوته ، ولم يترك أخى مصطفى وسيلة قريبة أو بعيدة لمطالعة هذا التاريخ إلا ابتغاها ، وأغلب الظن أنه قد وصل إلى مطالعته إما بواسطة المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان ، أو المرحوم الشيخ رشيد رضا ... »

وظاهرة جديدة نلحظها فى إنتاج من كتب فى التاريخ من رجال الثورة العرابية ، وهى ظاهرة كتابة المذكرات الشخصية ، فمعظم قواد هذه الثورة ورجالها كتبوا بعد فشلها مذكرات لهم ، فكتب أحمد عرابى مذكراته بعنوان « كشف الأستار عن سر بالأسرار »(١) .

وكتب عبد الله النديم — خطيب الثورة — سيرته فى المدة التى كان مختفياً فيها فى كتابه « كان ويكون » ، كما كتب مذكراته عن الثورة نفسها بعد فشلها فى صورة خطاب مرسل منه إلى عرابى ، وقد عثر على مخطوطة هذه المذكرات أخيراً الدكتور محمد أحمد خلف الله ، ونشرها لأول مرة مع مجموعة أخرى من رسائل النديم ومقالاته النادرة بعنوان : « عبد الله النديم ومذكراته السياسية ، القاهرة ١٩٥٦ . » ، وكتب محمد عبده مذكراته عن الثورة العرابية التى أشرنا إليها .

---

(١) طبع أكثر من طبعة فى القاهرة ، وتوجد نسخة كاملة من هذه المذكرات مخطوطة فى دار الكتب المصرية

عبد الله النديم

وكتب محمود فهمى — أحد قواد الثورة الثلاثة — وهو فى منفاه فى جزيرة سيلان تاريخاً كبيراً للعالم منذ أقدم العصور إلى أواخر القرن التاسع عشر وسماه « البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر » .

وقد اعتمد عند تأليف هذا الكتاب على كثير من المراجع الأوربية وبدأ بالأخذ عن المراجع الفرنسية ، وبعد تعلمه اللغة الإنجليزية فى سيلان رجع كذلك إلى المراجع الإنجليزية ، ويبدو أنه لم يعثر فى سيلان على أى مرجع تاريخى عربى ، فقد لاحظت أنه اعتمد على المراجع الأوربية اعتماداً كلياً ، حتى عند تأريخه للعصر الإسلامى وللدول الإسلامية ، والكتاب ليس له من أهمية إلا أنه يمثل ظاهرة جديدة ، وهو خروج المصريين من عزلتهم فى القرن التاسع عشر وبدء عنايتهم بتاريخ العالم والتأليف فيه ، وأهم ما فى هذا الكتاب الفصل الذى يؤرخ فيه محمود فهمى لمصر منذ الثورة العرابية إلى عهد عباس الثانى ، فهذا الفصل أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، يروى فيه كاتبه الأحداث كما شاهدها وكما شارك فيها وكما صنعها أحياناً ، وهو من المراجع الهامة لدراسة تاريخ الثورة العرابية ، مقدماتها وأحداثها ونتائجها ، ولدراسة حياة محمود فهمى وصحبه من زعماء الثورة فى منفاهم فى جزيرة سيلان .

فهؤلاء أربعة من رجال الثورة العرابية كتب كل منهم

مذكراته الشخصية يعلل فيها أسباب قيامها وأسباب فشلها ، ولعل السبب الذى دفعهم إلى كتابة هذه المذكرات أنهم جميعاً — فيما عدا النديم قد نفوا بعد محاكمتهم ، كما أن النديم ظل مختفياً تسع سنوات طوالا فكأنه كان منفياً كذلك ، فأرادوا أن يشغلوا بعض وقتهم فى المنفى فى كتابة هذه المذكرات ، ولعل كل واحد منهم أراد أن ينفى عن نفسه أن قد كانت له يد فى فشل الثورة ، ومهما يكن من أمر فهذا لون جديد من ألوان الكتابة التاريخية عرفته مصر لأول مرة فى القرن التاسع عشر ، ولم تكن لها معرفة به من قبل ، وسيتابع زعماء مصر السياسيون وقادتها الوطنيون فى القرن العشرين كتابة مذكراتهم ، فنسمع أن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وإسماعيل صدقى ومحمد حسين هيكل وغيرهم كتبوا مذكراتهم ، ولا زالت هذه المذكرات مخطوطة لم ينشر منها غير مذكرات هيكل بعنوان « مذكرات فى السياسة المصرية » وقد طبعت فى القاهرة سنة ١٩٥١ .

أما الفريق الثانى من فريق الحركة الوطنية ، فهو فريق مصطفى كامل وحزبه الوطنى ، وقد كان مصطفى ومعظم أنصاره من المحامين الذين درسوا القانون ، كما أنهم كانوا فى أول مراحل دعوتهم يؤمنون بفكرة الجامعة الإسلامية وبضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية ، وكانوا يريدون بهذا أن يثبتوا بطلان الاحتلال البريطانى من الناحيتين القانونية والدولية ، لأن مصر كانت عند

مصطفى كامل

محمد فريد

نزول الإنجليز بها تابعة لدولة أخرى ، ولهذا نجد أن معظم خطب مصطفى ورجال حزبه ومقالاتهم كانت تتجه فى أول مراحل دعوتهم إلى محاربة الاستعمار البريطانى وسياسة انجلترا فى الشرق الأدنى بوجه عام ، وحججهم التى كانوا يستشهدون بها كانت فى معظمها حججاً قانونية تاريخية ، أما القانون فهم رجاله وقد درسوه ومارسوه ، وأما التاريخ فقد أقبلوا على دراسته ليستعينوا به فى مجالات دفاعهم عن قضيتهم الكبرى ، قضية مصر واستقلالها ، ولهذا نجد معظم رجال هذه المدرسة الوطنية يؤلفون كتباً فى التاريخ تتصل بالمسألة الشرقية ، أو الدولة العثمانية ، أو عدم شرعية الاحتلال البريطانى أو مركز الاحتلال البريطانى لمصر والسودان من الناحية الدولية ، أو تاريخ المشاكل التى مهدت للاحتلال ، كمشكلة الامتيازات الأجنبية ، ومشكلة قناة السويس ، ومشكلة السودان ، ومشكلة الملحقات ، وهكذا . وسنورد فيما يلى نماذج من المؤلفات التاريخية التى كتبها رجال هذه المدرسة الوطنية لتأكيد ما ذكرناه :

فقد ألف الزعيم الأول للحزب الوطنى مصطفى كامل كتاباً من جزئين فى تاريخ المسألة الشرقية (القاهرة ١٨٩٨) ، وكتاباً آخر عن اليابان بعنوان « الشمس المشرقة » .

وألف الزعيم الثانى للحزب محمد فريد كتاباً فى تاريخ الدولة العلية العثمانية ، (طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٦) ، وكتاباً آخر

فى تاريخ محمد على عنوانه : « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » (القاهرة ١٣٠٨ هـ) ، وكتاباً ثالثاً فى « تاريخ الرومانيين » (طبع فى القاهرة ١٩٠٠) .

وكتب عمر لطفى[1] من كبار المحامين ومن قادة الحزب الوطنى كتاباً عن « الامتيازات الأجنبية » (طبع فى القاهرة ١٣٢٢ هـ) .

وكتب الدكتور أحمد فؤاد — وهو من رجال الحزب الوطنى البارزين — كتاباً عنوانه : « مصر والسودان فى نظر العلم والتاريخ » .

وكتب على فهمى كامل سيرة أخيه مصطفى كامل ، كما ترجم الرسائل المتبادلة بينه وبين مدام جولييت آدم عن الفرنسية إلى العربية ، وترجم كذلك كتاباً آخر لهذه السيدة عنوانه « انجلترا فى مصر » . . الخ . . الخ .

والتزم هذا التقليد رجالات الحزب الوطنى فى القرن العشرين ، وكان آخر من كتب منهم فى التاريخ عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة القومية فى مصر .

---

(١) توفى سنة ١٩١٢ وترجمته فى مجلة الهلال سنة ٢٠ ، ص ٣٢٣ ، زيدان ، تاريخ الآداب العربية ٤/٢٦٧ .